بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(١)

أ - ١ :

إن قضية الزمن قضية كل حيّ ؛ إذ إنها تتصل بحياة الإنسان على الأرض ؛ فهو يولد طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، فإذا امتد به العمر خط المشيب رأسه ، ثم يصيبه الكبر ويصير شيخا ، وهو إن عمّر نكّسه الله فى الأرض فلا يعلم بعد علم شيئاً .

ويحدثنا القرآن الكريم فى عدد من الآيات عن مراحل حياة الإنسان على الأرض فيقول تعالى : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا » (غافر ٦٧) ويقول تعالى : « ونُقِرُّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مُسمًّى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفَى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » (الحج ٥) ويقول تعالى : « ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون » (يس ٦٨) ونجد فى هاتين الآيتين الأخيرتين إشارة إلى التغيرات النفسية والعقلية التى تحل بالإنسان حين يتقدم به العمر .

وهذه التغيرات النفسية والعقلية تأتى مصاحبة للتغيرات الجسمانية من مشيب يخط الرأس وضعف يدب فى الجسم . ويشير القرآن الكريم إلى هذا كله فيقول تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشَيْبة ، يخلق مايشاء وهو العليم القدير (الروم ٥٤) .

وهذه الحقائق قد تضمنها نداء زكريا ربه حيث يقول تعالى : « قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا » (مريم ٤) ويشير القرآن الكريم فى مواضع أخرى بكلمة « شيخ » إلى مايعترى الإنسان فى كبره من عجز وضعف فيقول تعالى على لسان ابنتى شعيب : « قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » (القصص ٢٣) ويقول تعالى على لسان إخوة يوسف : « قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه » (يوسف ٧٨)

كذلك يشير القرآن الكريم إلى حقيقة أخرى تتصل بالمشيب ، ألا وهى المشيب قبل الأوان فتشتعل به الرأس حين يتعرض الإنسان للمحن والأهوال فيقول تعالى : « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً » (المزمل ١٧) .

وإذن فقضية الزمن تنحصر فى الشباب والمشيب والكبر ، شباب سرعان مايولى إذ هو ثوب معار سرعان مايعرى منه المرء ، كما يعرى من الورق القضيب (انظر البيت رقم ١٠٩) ، ومشيب يحيل السواد الذى يصحب الشباب بياضاً ، وكبر يأتى فى أعقاب المشيب .

ولما كان المشيب هو العلامة الظاهرة لهذا التغير فى حياة الإنسان فإن لفظه يستخدم للدلالة على جميع المراحل التى تعقب تولّى الشباب ومن هنا كان المشيب محنة إنسانية يمر بها الناس من كل لون ودين ، ويحسون آثارها فى أنفسهم ، وفيمن يحيط بهم من أهل وأقارب وأحبة . ولذلك نجد أن من وخط المشيب رأسه لايفتأ يتحسر على الشباب ، ويذكر أيامه ، ويتمنى عودته ، ويحسد الشباب على ما يتفجرون به من قوة ؛ كما أنه يكره المشيب ، فهو لا يفتأ يذكره بسوء لأنه يرتبط فى وجدانه وأمورٌ عدة كلها بغيضٌ إلى نفسه : فهو يقطع عليه طريق الاستمتاع بالحياة كما يستمتع بها الشباب ، وهو يفرض عليه قيوداً فى السلوك ، ووقاراً هو أزهد الناس فيه ؛ كذلك فإن المشيب يرتبط فى وعيه وقربُ دنو الأجل فهو يرى فيه نذير المنية .

فإذا كان هذا هو شعور الإنسان العادى فما بالك بالشعراء وهم على ماهم عليه من حس مرهف ، ومن ظمأ إلى الجمال الذى يستلهمون منه أشعارهم ، ذلك الجمال الذى ينفر من المشيب حين يزحف على الرأس ؛ كما يزحف النهار على الليل ! وإن الشاعر ليحزن أشد الحزن وهو يرى مافعله به المشيب من هزء الغوانى وملامتهن ، وصدودهن بعد إقبالهن ، وذهاب المرح من حياته وحلول الترح ، وزحف الأمراض والعلل ، وظهور آيات الكبر ، لذلك كله نجده يمدح الشباب ويكثر من البكاء عليه ، ويذم المشيب ويشكو مافعله به ، ويشكو إعراض الغوانى ويحاول جاهداً إقناعهن بالعدول عن الصدود والملامة ، ويدافع مستبسلاً عن المشيب معدداً محاسنه ومزاياه ، ونجده يتحدث عن الخضاب باعتبار أنه قد يكون حلاً لمشكلة الزمن !

وإن الباحث لتأخذه الدهشة من هذا الفيض من الشعر العربى الذى يتناول الشباب والمشيب : فالشاعر العربى قد يبدأ قصائده بذكر أحدهما أو كليهما ، أو يضمنها أبياتاً تتعلق بالشباب والمشيب وآيات الكبر ، وقلما تخلو قصيدة من ذكر هذا كله ، سواء كان تصريحا أم مجازاً . وقد قال عمرو بن العلاء : « مابكت العرب شيئاً مابكت على الشباب ، ومابلغت به ما يستحقه »

وقال الأصمعى : «أحسن أنماط الشعر فى المراثى والبكاء على الشباب» (العقد الفريد ٣٥١/٢)

وهذا الذى يتناوله الشعراء فى قصائدهم إنما يعبر عن الأفكار التى تدور فى أذهان الناس ويتداولونها فى مجتمعهم : فمدح الشباب أو ذمه أو التحسر عليه ، وذم المشيب أو مدحه ، والتحدث عما يصيب الجسم من ضعف ووهن ، ومن أمراض وعلل يأتى بها الكبر - كلها أمور يخوض الناس فيها فى أحاديثهم اليومية ، كما يجدونها مكتوبة عندهم فى بطون الكتب : فمن مدح الشباب ماجاء فى اللطائف والظرائف/ ١٠٦ من قول الصولى فى كتاب «فضل الشباب على المشيب» الذى ألفه للمقتدر :

«الشيب لا يقدم مؤخراً ولايؤخر مقدماً ، بل ربما عدل بجلائل الأمور ومهمات الخطوب عن المشايخ إلى الشبان لاستقبال أيامهم ، وسرعة حركاتهم ، وحدة أذهانهم ، وتيقظ طباعهم ؛ لأنهم على ابتناء المجد أحرص ، وإليه أصبى وأحوج» وقال بعض البلغاء :

«الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها»

ومن ذم الشباب ماجاء فى المرجع نفسه (ص ١٠٨ - ١٠٩) قولهم :

إن الشباب مطية الجهل ، ومظنة الذنوب ، وشعبة من الجنون ! ويقال : سكر الشباب أشد من سكر الشراب ! وقال ابن المعتز : «جاهل الشباب معذور وعالمه محقور ! وكان يقول : «نعوذ بالله من ترهات الشبان ونزغات الشيطان»

أما مدح المشيب فقد كان العرب يقولون فيه : «الشيب حلية العقل ، وسمة الوقار» وكان يقال : «الشيب زبدة مخضتها الأيام وفضة سبكتها التجارب» . وكان بعض الحكماء يقول : «إذا شاب العاقل سرى فى طريق الرشد بمصباح الشيب» ووصف بعض البلغاء رجلاً شاب وارعوى عن مجاهل الشباب فقال : «ذاك قد عصى شياطين الشباب وأطاع ملائكة الشيب» .

وقال ابن المعتز : «عظم الكبير فإنه عرف الله قبلك ، وارحم الصغير فإنه أغرّ بالدنيا منك» وكان يقال : «الشيخ يقول عن عيان ، والشاب عن سماع» (اللطائف والظرائف ١٠٨) . ونقرأ فى المرجع نفسه أن للبديع الهمذانى فصلاً فى مدح الشيب وذم الشباب يقول فيه : «جزى الله المشيب خيرا ، فإنه أناة ، ولاردّ الشباب فإنه هنات ، وبئس الداء الصبا ، وليس دواؤه إلا انقضاءه ، وبئس المثل النار ولا العار ، ونعم الراكضان الليل والنهار ، وأظن الشباب والشيب لو مثلا لكان الأول كلباً عقوراً ، والآخر شيخاً وقوراً ، ولاشتعل الأول ناراً واشتهر الآخر نوراً ،

فالحمد لله الذى بيّض القار ، وسماه الوقار ، وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد ! إن السعيد من شابت جملته ، ولم تخصّ بالبياض لحيته »

وأما عن **ذم المشيب** فيروى لنا صاحب العقد الفريد (٣٤٨/٢) أنه جاء فى الحكم : «كفى بالشيب داء » وقال أعرابى : كنت أنكر البيضاء ، فصرت أنكر السوداء ، فياخير مبدول وياشر بدل ! » وقال القاحم : « الشيب ناهى الشباب ورسول البلاء » وقال يونس النحوى : « الشيب مجمع كل عيب (اللطائف والظرائف ١٠٩) ونقرأ فى عيون الأخبار (٣٢٤/٢) أن إياس بن قتادة رأى شعرة بيضاء فى لحيته فقال : أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته ، أعوذ بك من فجاءات الأمور ، يابنى سعد قد وهبت لكم شبابى فهبوا لى شيبتى » ولزم بيته .

وعن **الشيب المبكر** بسبب المحن والأهوال يروى لنا صاحب العقد الفريد (٣٤٨/٢) أنه قيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ! قال شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ! ونعلم من المرجع نفسه أن الشيب المبكر قد يكون بسبب الانغماس فى اللهو والباطل ؛ فقد قيل لرجل من الشعراء : عجل عليك الشيب ! فقال : وكيف لايعجل وأنا أعصر قلبى فى عمل لايرجى ثوابه ولا يؤمن عقابه !

ويتحدث الناس عن أن الشيب عند بعضهم قد يكون **وازعاً ورادعاً** ، فقد قال أعرابى : كنت فى شبابى أعضّ على الملام عضّ الجواد على اللجام ، حتى أخذ المشيب بعنانى !

ويرى الناس أيضاً أن الشيب **نذير الكبر** فيقول النميرى : الشيب عنوان الكبر .. ويُسأل أعرابى عن سبب اشتعال شيبه فيقول : هذا رغوة الشباب ! وعن الضعف والوهن ومقومات الكبر ينبئنا صاحب العقد الفريد (٣٥٧/٢) أنه قيل لأعرابى قد أخذته كبرة السِّن : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت تقيّدنى الشعرة ، وأعثر بالبعرة ! قد أقام الدهر صَعَرى بعد أن أقمتُ صَعَره ؛ كما ينبئنا (ص ٣٦١) أن أبا عبيدة قال : قيل لشيخ مابقى منك ؟ قال : « يسبقنى مَنْ أمامى ، ويدركنى من خلفى ، وأذكر القديم ، وأنسى الحديث ، وأنعس فى الملا ! وأسهر فى الخلا ! وإذا قمت قربت الأرض منى ، وإذا قعدت تباعدت عنى ! وهذا القول شبيه بما نجده فى الموسوعات الطبية من وصف لآيات الكبر . .

كذلك نقرأ فى البيان والتبيين ٤٦٤ أن بعضهم قال : من بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، وأن العتبى قال : الشيب مجمع الأمراض .

أما عن كون الشيب **نذير المنية** فنقرأ فى العقد الفريد (٣٤٧/٢) أن قيس بن عاصم قال : الشيب حطام المنية ؛ وأن المعتمر بن سليم قال : الشيب موت الشعر ، وموت الشعر علة لموت البشر ؛ كذلك نقرأ فى اللطائف والظرائف ١٠٩ أن الحجاج قال : الشيب بريد الموت ! وقال مالك بن أنس : الشيب توءم الموت ، وقال العتابى : الشيب نذير المنية ؛ وقال ابن المعتز : الشيب أول مواعيد الفناء ! وقال غيره : الموت ساحل الحياة والشيب سفينة تقرب من الساحل ! وقال ابن عائشة : الشيب قناع الموت ؛ وقال ابن شكلة : الشيب إحدى الموتتين ! ونقرأ فى البيان والتبيين ٣٧٨ قول بعضهم : الشيب نذير الآخرة ، وقول المعتمر بن سليمان : الشيب أول مراحل الموت ! وقول السهمى : الشيب تمهيد الحمام !

وهذا الذى سردناه من أقوال الناس وأقوال الحكماء والمشهورين هو فى معظمه ماتناوله الشعراء العرب فى أشعارهم . ولما كانت المادة الشعرية فى هذا المجال غزيرة كل الغزارة فقد رأينا أن نكتفى بعدد محدود يبلغ ١٣٠٢ نموذجاً وجدنا أنها تتضمن كل تلك المعانى ، ومن ثم فقد وجدنا أن عرض المزيد من تلك النماذج لن يسفر عن إضافة جديدة لتلك المعانى التى استخلصناها من النماذج التى اتخذناها أساساً للبحث ، وقد بلغ مجموع النماذج بما فيها الباب الخاص بالبحترى ١٥٧٠ بيتاً .

أ – ٢ : منهج البحث :

وإذا نحن حاولنا أن نحدد إطاراً عامًّا نضع فيه موقف الشاعر العربى ، بل موقف الإنسان بوجه عام من قضية الزمن – فلن نجد خيراً من بيت من الشعر جمع من المعانى مايكفى ، لكى يمدنا بمادة غزيرة تكون أساساً لأى بحث يتناول تلك القضية ، هذا البيت الجامع هو قول **أبى العتاهية** (٤٢٩/٨)

١ ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما صنع المشيب !

والواقع أننا نجد أن هذا الإطار العام ينطبق على الشعر على مستوى الشعراء ، أو مستوى الشاعر الواحد (كالبحترى مثلا) وعلى مستوى القصيدة الواحدة ، بل أحياناً البيت الواحد .

إن **صدر** هذا البيت الذى نحن بصدده ، والذى نبدأ به قائمة النماذج يتضمن بكاء الشاعر على شبابه ، وتحسره على ذهابه وتمنيه عودته ، ومن ثم جعلناه عنواناً **للباب الأول** من هذا الكتاب

بحيث يشتمل على مااستطعنا جمعه من نماذج تتناول هذه المعانى .

أما **عجز** البيت فقد جعلناه عنواناً **للباب الثانى** ، لأنه يجيب على السؤال الذى هو لب قضية الزمن ، ألا وهو : ماذا يفعل المشيب بالإنسان ؟ وإن عجز هذا البيت لمن البلاغة بحيث إنه يتيح للمرء أن يدرج تحته مئات من المشكلات التى تبدأ مع المشيب ، وهذا ماجعلنا ندرج تحته باقى فصول الكتاب .

فالفصل الثانى يتناول المشيب بالوصف ، وماجاء فى الشعر العربى فيه من مدح أو ذم ، ودفاع الشاعر عنه .

أما **الفصل الثالث** فيقدم لنا وسائل مقاومة المشيب ومحاولة حل مشكلاته عن طريق الخضاب ، بيد أنه حين يتيقن الشاعر أنه لاجدوى من الدفاع أو المقاومة يستسلم للأمر الواقع ؛ حيث أصبحت آيات الكبر ظاهرة يتعذر إخفاؤها ، وهو ما يتناوله **الفصل الرابع** .

ولما كنا قد عثرنا على مجموعة من القصائد لعدد من الشعراء يجتمع فى كلٍّ منها كلّ أو جلّ المعانى التى استخلصناها فقد رأينا أن نقدمها فى باب مستقل هو **الباب الثالث** بحيث تكون بمثابة تلخيص للمادة الشعرية وماجاء بها من معان .

كذلك وجدنا أن **البحترى** يكثر من ذكر الشباب والمشيب كثرة تسترعى نظر الباحث بحيث يمكن القول : إن معظم قصائده ، وبخاصة قصائد المدح – تبدأ بأبيات عن الشباب أو المشيب ، أو تتضمنها فى ثناياها ، لذلك رأينا أن نفرد له باباً خاصًّا هو **الباب الرابع** . وقد تخيرنا منها ٢٦٨ بيتاً اختتمنا بها هذا الكتاب .

وجدير بالذكر أن المعانى التى يتناولها البحترى ، والمصاحبات اللفظية التى يستخدمها لا تكاد تخرج عن تلك التى أحصيناها ، وصنفناها فى فصول هذا الكتاب . وقد أوردنا تلك الأبيات متبعين الترتيب الذى اتبعناه نفسه فى تقسيم فصول الكتاب ، غير أننا اكتفينا بإدراجها تحت عناوينها دون تعليق تجنباً للتكرار .

وبعد هذا كله أوردنا للبحترى مجموعة من الأبيات تضم معظم المعانى التى حددناها ، وذلك لكى تكون بمثابة تلخيص لها .

وقد راعينا فى سرد نماذج الشعر أن نكتب المصدر بين قوسين يضمان رقمين أو أكثر ، فإن كانا

رقمين فالأول يفيد ترتيب المصدر فى قائمة ثبت المراجع التى جاءت بآخر الكتاب ، والرقم الآخر يدل على الصفحة التى أخذ منها النموذج : مثال ذلك البيتان رقما ١١٨٤ ، ١١٨٥ وهما لحسان بن الغدير : فقد جاء التعريف بالمصدر هكذا : (٥٠٣/٨) وهو يفيد أن المصدر هو رقم ٨ فى قائمة ثبت المراجع (وهو البيان والتبيين) وأن الرقم ٥٠٣ هو رقم الصفحة التى نقلناها منها البيتين المشار إليهما . أما إذا كان المصدر يتكون من أكثر من جزء أو قسم فإن رقم المصدر يأتى أولاً ، ثم رقم الجزء ، ثم رقم الصفحة : فمثلا ٣٧٠/٣/١٢ : تعنى أن نموذج الشعر قد أخذ من رقم ١٢ فى ثبت المراجع ، وهو فى هذه الحالة «معادن الجواهر» والجزء الثالث صفحة ٣٧٠ ، ويلاحظ أن الأرقام يفصل بينها خط مائل .

كذلك فقد راعينا فى ترتيب نماذج الشعر أن نعطى كلا منها رقماً مسلسلاً يستدل به عليه ، فإذا دعت الضرورة إحالة القارىء إلى واحد أو أكثر من تلك النماذج فإن رقمه يوضع بين قوسين ، وإذا دعت الضرورة إلى إعادة ورود بيت أو أبيات بعينها فإنها فى تلك الحالة لاتُعْطى رقماً جديداً ، وذلك حتى تظل مرتبطة بالرقم الأصلى الذى أعطيته عند ورودها لأول مرة ، مثال ذلك : بيت أبى العتاهية الذى اتخذناه إطارا لبحثنا ، فقد ورد أول مرة تحت رقم (١) ولكن دعت الضرورة إلى وروده مرة أخرى مع بيت سابق له ، وذلك فى ١ – د فلم نعطه رقماً ، ويلاحظ أن الأرقام إذا زادت عن رقم فإنه يفصل بينها بفواصل تمييزاً لها عن الأرقام الدالة على المصدر .

ويجدر التنويه إلى أنه قد أجريت بعض التغييرات حيثما وجد أحد الأبيات مختلّ الوزن ويمكن للقارئ دائما أن يرجع إلى المصدر للتحقق من الأصل ، ويرجع الفضل فى هذه التغييرات إلى دقة الأستاذ المراجع بدار المعارف وسعة اطلاعه .

أ – ٣ : مادة البحث :

إن الشعر الذى يتناول قضية الزمن ، والذى تتضمنه فصول هذا الكتاب إنما يتناول الشباب والمشيب تناولاً مباشراً واقعيًّا ، وهو – وإن تضمن جوانب بيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية – إن هذا كله لما يتصل بحقيقة الشباب والمشيب أو بالتجربة الذاتية للشاعر . غير أننا وجدنا أن اهتمام الشاعر بقضية الزمن يجعله حين يعمد إلى الوصف البيانى كالتشبيه مثلاً فإنه يجعل المشبه به هو الشباب أو المشيب أو مايدل على كل منهما من سواد وبياض وغير ذلك ، ومن ثم فقد رأينا أن يكون مكان مثل تلك الأبيات هو المقدمة .

فمن حيث **الشباب** نجد أن الشعراء حين يصفون شيئاً يكون ذا رونق وبهاء – فإنهم يصفونه بالشباب : كقول **ابن الرومى** فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره (٢٦٩/١٣) :

٢ بلدٌ صحبتُ به الشبيبةَ والصِّبا ولبستُ ثوبَ اللَّهو وهو جديدُ

٣ فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصانُ الشبابِ تميدُ

كما أنهم يشبهون مايستحسنونه بالعيش فى زمن الصبا : كقول **الوأواء الدمشقى** (٤٣٦/٥/٤) :

٤ يطوف براح ريحها ومذاقُها نسيمُ الصِّبا والعيشُ فى زمنِ الصِّبا

وقول **البحترى** يمدح أحمد بن سليمان ابن أخت أبى صقر (٢٢٢١/٤/٤٦ ، البيت ٣٢ ، وهو آخر أبيات القصيدة) :

٥ يـذكّـرنـا لُـبس نعمائِهِ لـبـاس الشبـاب ورَيعانِهِ

وقوله (٢١٣٧/٤/٤٦ – ٢١٣٨) :

٦ أيام رأسى كالغراب أسْحَمُهُ يُتَيِّمُ الرَّيمَ ولايتيَّمهْ

كذلك فإن الشعراء حين يريدون مدح شىء أو تعظيمه – يصفونه بأنه يردُّ المرء إلى اقتبال شبابه : كقول **أبى العلاء المعرى** من قصيدته التى يجيب فيها شاعراً مدحه يعرف بأبى الخطاب الجبَلىّ (٧٢٦/٢/١١) :

٧ وهززتَ أعطافَ الملوكِ بمنطقٍ رَدَّ المُسِنَّ إلى اقتبالِ شبابِهِ

وفى هذا المعنى يقول **ابن سناء الملك** (١٤٢/٢٧) :

٨ أعـاد شبيبتى بعد المشيبِ وأمسى مسقمى وغـدا طبيبى

ويقول **حافظ ابراهيم** (٢٣١/٢٤) :

٩ وَردُّوا على الإسلام عهدَ شبابه ومدّوا له جاهاً يُرَجَّى ويُرْهَبُ

ويُقْرن الشباب والمشيب فيما يضرب الشعراء من أمثال ، من ذلك قول **الشاعر** (٢٢٢/٨) :

١٠ سواء كأسنان الحمار فلاترى لذى شيبة منهم على ناشئ فضلا

وقول آخر (٢٢٢/٨) :

١١ شبابهم وشيبهم سواءٌ فهم فى اللون أسنان الحمار

وفى مجال التحسر على الشباب نجد **السرىّ الرفّاء** يضرب مثلاً بذكر الشيوخ شبابَها فيقول (٩٥١/١٠/٤) :

١٢ ألاحظها لحظ الطَّريد مَحَلَّهُ وأذكرها ذِكْرَ الشيوخ شبابَها

وفى هذا المعنى يقول **أبو محمد الحسن التنيسى** (٥٩٦/٧/٤) :

١٣ طربت نفسى إليه وإلى طيب اقترابهْ

١٤ طرب الشيخ إذا ذكرَ م أيام شبابه

ونجد الشعراء يشيرون إلى مرور الزمن بوصف برد الشباب بأنه قد بدأ يخلق ، فنسمع **السرىّ الرفّاء** يقول (٩٣٤/١٠/٤) :

١٥ وقطعتُ الشباب فيه إلى أن هَمَّ بُردُ الشبابِ بالإخلاقِ

ونجدهم فى وصفهم يزاوجون بين الشباب والليل إشارة إلى سواد الشعر ، فيقول **أبو العلاء المعرى** من قصيدة له يهنئ بزفاف (٨٥٥/٢/١١) :

١٦ نال شباباً مستقبلاً تهرَمُ دنياهُ ولايَهْرمُ

وهو يعنى هنا أن الليل (وهو سواد) بما كان فيه من الزفاف يبقى على مر الدهور شباباً (وهو سواد) لايمسه هرم وإن هرم الدهر.

ويقول **أبو القاسم الزاهى** (٣٧٨/٤/٤) :

١٧ ماكنتُ أحسب أن أعاين أوأرى تخطيط ليلٍ فى بياض نهار!

فهو قد مثّل السالف بالليل والوجه بالنهار.

ويقول **أبو علىّ بن معد** صاحب مصر (٦٨٧/٨/٤) :

١٨ واذ لمّتى لم يوقظ الشيبُ ليلها وإذ أثرى فى الغانيات حميد

وهم حين لا يذكرون لفظ « الليل » يشيرون إليه بلفظ « الظلماء » ، كقول **أبى العلاء المعرى** فى مطلع قصيدة يجيب فيها الشريف أبا إبراهيم عن قصيدة له (٤٢٩/١/١١) :

١٩ فكأنى ما قلتُ والبدرُ طفلٌ وشباب الظلماء فى العنفوان

وهم يشيرون إلى الشباب بالسواد ، كقول **أبى الفرح العجلى** (١٥٧/٢/٤) :

٢٠ وهــواهُ يدبُّ فى كـل قلبٍ كدبيب السَّـوَادِ فى عارضيـه

ويتخذ **أبو العلاء المعرى** من أول السن وآخرها مجالاً للمقارنة فيقول (١٦٧/١/١١) :

٢١ والحمدُ والكِبْرُ ضِدَّانِ اتفاقُهما مثل اتفاق فتاء السِّن والكِبَر

أما عن **المشيب** فنجد نماذج كثيرة لاستخدامه استخداماً بيانيًّا فمن أمثلتها : قول **أبى العلاء** من قصيدة يمدح بها الشريف أبا إبراهيم العلوى ، ويشبه فيها الرخم الأبيض فوق الغبار الأسود بالشعرات البيض فى مفارق أسْود (٣٦٤/١/١١ ، البيت ٢١) :

٢٢ كأنَّ الأنوق الخرس فوق غبارِهِ طوالعُ شيبٍ فى مفارِقِ أسْود

وقوله أيضاً (٤٣٨/١/١١ ، البيت ١٧) :

٢٣ ثم شاب الدُّجى وخاف من الهجر م فغطَّى المشيـبَ بالزعفـران

وفى درعيته السادسة يشبه المعرى بياض الدرع وبياض السيف بالشيب فيقول : (١٧٧٨/٤/١١ ، البيت ١١) :

٢٤ ومرَّتْ شيبها فلاق مشيب السيف م ذُلاً أن مسَّ منها قتيرا

ويقول **البحترى** من قصيدة يمدح بها أبا نهشل محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسى (١٩٩١/٣/٤٦ ، البيت ٢٩) :

٢٥ فى شُعلةٍ كالشيب لاح بمفرق غزلٍ لها عن شيبه بغَرامِهِ

ويقول **أحمد شوقى** من أبيات له فى وصف قصر أنس الوجود وقد كادت المياه تغرقه (٤٠٥/١٣) :

٢٦ شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون مازال غضّا

ويشبه **أبو فراس** ضوء الفجر بالمشيب فيقول (٦٩/١/٤) :

٢٧ خليلى شُدّا على ناقتيكُما إذا مابدا شيبٌ من الفجر ناصِلُ

ويشير الشعراء إلى المشيب يريدون به مرور زمن طويل ، كقول **حفنى ناصف** (٣٥٣/١٣) :

٢٨ برَزتُ فى سحر البيا نِ وشاب فيه مفرق

وقول **أبى فراس** (٥٠٢/٢/١١ ، ٩٠/١/٤) :

٢٩ مددنا عليه الليلَ والليلُ راضع إلى أن تحلىّ رأسُه بمشيب

وقول **أبى العلاء المعرى** (٦٥١/٢/١١) :

٣٠ أقول وقد طال ليلى علىّ أما لشباب الدجى من مشيب ؟

وقول **الراجز** (٣٨/٣٩) :

٣١ لكل دهْرٍ قد لبست أثوباَ حتى اكتسى الرأس قناعاً أشيبَا

ونجد تمثيلاً فى قول **الشاعر** (٢٧٨/١/١٤) :

٣٢ فنحن أخٌ لم تلق فى الناس مثلنا أخاً حين شاب الدهرُ وابَيضَّ حاجبه

ويستخدم **حافظ جميل** ، الشيب وصفاً لطول مكوث الاستعمار البريطانى بوطنه العراق فيقول (٧٣/٣١) :

٣٣ للهِ دَرُّكَ أشيباً عبلاً يبلى الزمانُ وأنت لاتبلى !

٣٤ من كان مثلك عبد بهمته لايشتكى ضعفاً ولاهزلا !

كذلك نجد أن الصلع ، وهو البديل للشيب أو المصاحب له – يُستخدم أيضاً استخداماً بيانيًّا ، فيقول **عمرو بن معد يكرب** (١١٦/٢١) :

٣٥ وسوق كتيبةٍ دلفت لأخرى كأنَّ زهاءها رأسٌ صليعُ

ونجد المشيب وبياضه يُشبَّه بهما فى عدد من الأبيات ، منها قول **السَّرِىّ الرَّفاء** من أبيات يصف باق زجاجة الكأس من أعلاها إذا كانت ناقصة من الشراب (٩٦٨/١١/٤) :

٣٦ كأن أعاليها بياض سوالفٍ يلوحُ على توريد جيب مُوَرَّدِ

وقول **صفى الدين الحلى** من أبيات له فى فرس أدهم مُحجَّل (٢٠٨/١/١٥) :

٣٧ فكأنه صِبْغُ الشبيبة هابَهُ وَخْطُ المشيب ، فجاءه من أَسْفَلِ

وحين يصفون الليل يشيرون إلى شيبه وهو مجاز عن طلوع صبحه ، كقول **أبى العلاء المعرى** (٥٤٥/٢/١١) :

٣٨ من الزِّنج كَهْلٌ شاب مَفْرِقُ رأسِهِ وأوثِقَ حتى نهضُهُ متثاقِلُ

وهم يكنون عن المشيب بالفجر : كقول **مهيار الديلمى** (٨٧/٢٩) :

٣٩ مالسارى اللهو فى ليل الصبا ضَلَّ فى فَجْرٍ برأسى وَضَحَا ؟

وكما يصف الشعراء الشباب بالليل فإنهم يصفون المشيب بالنهار ، ونجد **ابن المعتز** يتحدث عن وجوب الارعواء عند المشيب مستخدماً هذه الأوصاف فيقول (١٢٣/١/١٥) :

٤٠ ولقد قَضَتْ نفسى مآربها وقضيتُ غيًّا مرةً ورَشَدْ

٤١ ونهارُ شيب الرأس يوقظُ مَنْ قد كان فى ليْل الشبابِ رَقَدْ

ويقول **الفرزدق** (٢٦٧/١/١٤) :

٤٢ والشيبُ ينهضُ فى الشباب كأنه ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهارُ !

كذلك نجد أن الشاعر المصرى **عبد الرحمن شكرى** يستخدم مشاعر الفزع التى تنتاب الإنسان لدى رؤيته المشيب فى وصف فزعه من رؤية ضوء القمر على القبور فيقول (١٠١/٣١) :

٤٣ إنى رأيتُ بياض صونك موهناً فوق القبور كعارض يتهلَّلُ

٤٤ ففزعت من ذاكَ البياض كأنه لون المشيب على الذوائب يثقلُ

وهذا الفزع عند رؤية المشيب نجده مجالاً للتشبيه أيضاً فى قول **أبى العلاء المعرى** (١٤٩١/٤/١١ – ١٤٩٢ ، الأبيات ٤ – ٦) :

٤٥ دع الطير فوضى ! إنما هى كُلُّها طوالبُ رِزْقٍ لا تجىء بمُفْظَعِ

٤٦ كعصبة زنجٍ راعها الشيبُ فازْدَهَتْ مناقيش فى داجى الشبيبة أَفْرَعِ

٤٧ بَغَتْ شعراتٍ كالثغامِ فَصادفت حوالِك سُوداً ماحَلَلْنَ لمُرْتِعِ

وفى شرح هذه الأبيات يقول البطليوسى إن المعرى شبه الغربان بعصبة من الزنج ظهر فى ظهورها شيب أفزعها ، فأرادت أن تنتف الشعرات البيض ، فأخطأتها ونتفت الشعرات التى يجب ألا تُنْتَف ، وإنما قال ذلك لتنتف الغربان لريشها الأسود .

وفى المجال البيانى أيضا يقول **السرىّ الرفّاء** (٩٢٦/١٠/٤) :

٤٨ وغرائب مثل السيوف إضاءةً وَجَدَتْ مِنَ الفِكَرِ الدقاقِ صياقلا

٤٩ فلو استعار الشيبُ بعض جمالها أضحى إلى البيض الحِسان وسائلا

ويعمد الشعراء فى المجال البيانى أيضاً إلى ذم المشيب ، كقول **أبى الطيب** يمدح نفسه (٩٣/٢٩) :

٥٠ ما أبعد العيبَ والنقصانَ عن شرفى أنا الثريا وذانِ الشيبُ والهَرَمُ

ويقول عن الهرم (٢٩/٩٣) :

٥١ أتى الزمانَ بنوه فى شبيبة فسرّهم وأتيناه على الهَرَمِ !

وفى مجال التشبيه يصف المتنبى الرضا بشخص كرهاً كأنه الرضا بالشيب الذى نرضى به قسراً ، فيقول (٤/٤/٢٩٠) :

٥٢ رَضُوا بِكَ كالرِّضا بالشَّيبِ قَسْراً وقد وخط النَّواصى والفروعا !

وفى مجال إرسال الحكمة بأن الموت ليس له علاقة بالشباب أو المشيب ، وأن الشاب الأسود اللمّة قد يموت قبل من أصيب بالشيب العميم يقول المتنبى (٤/٤/٣٣٤)

٥٣ ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلا أرى يَقَقاً يُميتُ ولاسواداً يَعْصِمُ !

ويقول السرّى الرفاء فى وصف البرد (٤/١١/٩٦٧) :

٥٤ يومٌ خلعتُ به عِذارى فعريتُ من حُلَلِ الوقار

٥٥ وضحكتُ فيه إلى الصِّبا والشيبُ يضحكُ فى عِذارى

وينسب أبو النجم الشيب إلى الأسنان فى قوله (٢١/١١٢/٤٦٣) :

٥٦ إن يُكُ أمسى الرأسُ كالثَّغام وشاب أسنانى من الأقوامِ

كذلك يستخدم الشعراء عدداً من المعانى الخاصة بالشيب المبكر استخداماً بيانيًّا ، فيقول أبو العلاء المعرى من قصيدة يجيب فيها أبا القاسم على بن الحسين بن جلبات عن قصيدة مدحه بها (١١/٢/٥٠١ ، البيت ٤٧) :

٥٧ رجا الليلُ فيها أن يدوم شبابهُ فلما رآها شابَ قبل احتلامه !

ويقول من قصيدة يرثى بها أمه ، فيصف ليلاً يشيب الوِلْدانَ فيه لما فيه من أهوال (١١/٤/٣٥٦ ، البيت ٤٣) :

٥٨ وليلاً تُلحق الأهوالُ منه بفودِ الشيخ ناصية الغُلام

ويقول ابن خفاجة يصف السرى فى ظلمة الليل الحالك المنبعثة فى كل ركن من أركان الفضاء ، ومايوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة (١٦/٢/١٢٩) :

٥٩ قد شاب من طرف المجرة مَفْرِقٌ فيه ومن خَطِّ الهلالِ عِذارُ

ويتحدث **ابن زيدون** عن الشيب المبكر الذى يصيب الكبد من الهموم فيقول من قصيدة كتبها إلى صديقه أبى بكر بن مسلم عاتباً لأنه عابه لفراره من السجن :

٦٠ هرمت ومالشيب وَخْطٌ بمفرق ولكنْ لشيب الهمِّ فى كبدى وَخْطُ

أما عن **الخضاب** فقد استخدمه الشعراء استخداماً بيانيًّا فى مواطن عدة : فنحن نجد أن **أبا العلاء المعرى** يشبه بياض الدرع بالشيب ، والدم الذى عليه بالخضاب ، وذلك فى درعيته التاسعة على لسان رجل سأل أمه عن درع أبيه (١١/٤/١٨٥٥ – ١٨٥٦ ، الأبيات ٢٠ – ٢٣) ، ويلاحظ أنه يشير أيضاً إلى الشيب المبكر ، يقول أبو العلاء :

٦١ ذاتُ قتير شابت بمولدها ولم يكن شيبُها من القِدمِ
٦٢ فما عددنا بياضها هرماً حين يُعدُّ البياضُ فى الهرم
٦٣ ماخضبته المهنَّداتُ لها ولا العوالى سوى رشَاشِ دم
٦٤ فاعجب لرؤياكَ غير ناسكةٍ قد غُيِّرت بالصَّبيب والكتم

ويقول عن إخفاء الخضاب للمشيب ، من قصيدة له (١١/٤/١٧٢٠ – ١٧٢٢) (البيتان الثانى والثالث) :

٦٥ وأنّى لايُغيرّ لى قتيراً خِضابٌ كالمُدام بلا مِزاجِ
٦٦ منعتُ الشيب من كتم التَّراق ولم أمنعه من خِطرِ العَجاج

والبيتان من درعيته الثالثة قالها على لسان درع تخاطب سيفاً . ويقول التبريزى فى شرحها : القتير ابتداء الشيب ، والشيب إذا خضب أثر فيه الخضاب وتغيّر ، وقتير هذه الدروع لايغيره الخضاب الذى ذكره وهو الدم ؛ لأن السيف لايعمل فيه فيجرى عليه دم ويغيّره .

ومن قصيدة ثالثة لأبى العلاء يشير فيها إلى قصيدة كان الممدوح قد حُمِّلها ليبلغها بعض الناس فلم يفعل ، يقول عن سرعة افتضاح الخضاب (١١/٢/٨٨١ ، البيتان ٢١ – ٢٢) :

٦٧ وإذا نضت عن متنها بُرْدَ الصِّبا معشوقةً فإلى الجفاء تئول
٦٨ شابت فجُدْ بخضابها وابعث بها عَجِلاً إليه فللخضابِ نصُولُ

وعن افتضاح الخضاب أيضا يقول **محمد الأسمر** فى مجال التشبيه (٢٤/٢٣٥) :

٦٩ كالشيب أعيا من راح يصبغه فلاح يلمع مثل الفجر ناصله

ويقول **أبو فراس** (٣٦٥/١/١١ ، ٩٠/١/٤) :

٧٠ إلى أن بدا ضوء الصباح كأنّه مبادى نُصولٍ فى عذارٍ خضيب

ويتحدث **الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبى** عن سوء الطالع الذى يلازمه ، وكأنه خضاب لاينصل فيقول (٤٥٦/٣/١٢) :

٧١ يامن يسوِّدُ شعره بخضابه فعساه من أهل الشبيبة يحصل

٧٢ هافاختضب بسواد (حظّى) مرةً ولك الأمان بأنه لاينصل

ويقول **البحترى** فى سرى الليل وطلوع الفجر (٢٦٧/١٣) :

٧٣ والعيس تنصل من دُجاه كما انجلى صبغ الخضاب عن القذال الأشيب

وفى مجال الوصف البيانى نجد فى المادة الشعرية التى لدينا عدداً من التشبيهات يكثر ورودها ؛ كما ترد معها ألفاظ أو مصاحبات لفظية بعينها . وفيما يلى نعدد كلاً منها مع الاكتفاء بذكر مثل أو اثنين أو ثلاثة حيثما أمكن ذلك ، وتوضع أرقامها التى تدل عليها بين قوسين كما سبق أن أوضحنا فى أ – ٢ ، وذلك فيما عدا ألفاظ الشباب والمشيب والخضاب ، فهى من الكثرة بحيث لاتحتاج منا إلى تنبيه .

ففيما يتعلق **بالشباب** نجد أنه يوصف بأنه بُرد (١١٠ ، ٨٥١ ، ١٠٢٨) أو ثوب (٣١٦ ، ٩٠٢) أوردداء (١٣٦٩ ، ١٤٥٧) يلبس (١١١ ، ١١٣) ويخلع أو ينضى (١٣٦٩) أو يطوى (٨٥١) ، وهو قناع يلبس (٨٨) ، وهو عمامة يتعمم بها (٨٩ ، ٤١١) .

كذلك يشار إلى الشباب بالسواد (١٣٢ ، ٥٠٨ ، ٩٩٦) أو الظلام (١٤٥٦) أو الظلماء (١٤٨١) وبالليل (٤٤٤ ، ٨١٥ ، ١٣٥٩) مقابل النهار للمشيب ، أو الدجى (٣٤١ ، ١٣٥٩) .

ويشبه الشباب بالغراب (٣٥٩ ، ٩٢٦ ، ١٣٧١) مقابل الباز للمشيب ، أو الأبنوس (٤٩١ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨) مقابل العاج للمشيب ، والحمم (٩٠٩) .

كذلك يشار إلى حالة التباهى بسحب الذيل أو جره (١٥٥ ، ٢٤٩ ، ٩٠٢ ، ١٤٥٧) .

أما فيما يتعلق بالأفعال التى تصاحب ذكر الشباب فإنه يقال : إن الشباب ولىّ (١١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٦١) وتولى (٧٢٨ ، ١٤٢٨) وبان (٤٤٢ ، ٧٤٨ ، ١٤٠٨) وأودى (١٨١)

ورحل (٢٣٨) وترحّل (٢٣٣) وودّع (٢٦٨ ، ٣٤٤ ، ٧٢٢) ومضى (٧٢٢) .

أما فيما يتعلق بالمشيب فنجد أنه كالشباب يوصف بالبُرد (٥٤٤ ، ١٣٦٨) أو الثوب (٩١٩) أو الخلعة (١٠٨١) ؛ كما يوصف بالقناع (١٣٠ ، ٢٦٠ ، ٥٤١) والعمامة (١١٣٥ ، ١٢٣٦) .

كذلك يشار إلى الشيب بالقتير (٦٢٩ ، ٧٧٠ ، ١٣٨٩) والبياض (٦٢٤ ، ٥٨٢ ، ١٥٤٠) مقابل السواد للشباب ، والنهار (٤٠٤ ، ٨١٥) مقابل الليل للشباب .

ويشبه المشيب بالحمامة أو الرخم (٥٢١ ، ٩٧٦ ، ٩٩٨) وبالباز (٣٥٩ ، ٩٢٦ ، ١٣٧١) مقابل الغراب للشباب ، وبالعاج (٤٩١ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨) مقابل الأبنوس للشباب .

كما يشبه بالثغام (٤٧ ، ٥٦ ، ٧٩٥) والريش (٩٠٩) والزبد (٨٤٦) والشعلة (٦٥٤) والنور (٦٣٧) والصبح أو الصباح (٥٦٢ ، ١٤٥٦) والفجر (٦٩ ، ٣٤١) والبدر (١٣٥٩) والكواكب (١٥٣٥) والنجوم (٣٩٠ ، ١٤١٨) والضوء (٢٨١) والكفن (٢٨٣) .

ويوصف المشيب بأنه ضيف (٢٩٦ ، ١٢٨٦) ونازل (٣٧٢) وزائر (٤٠١) وهو عند البعض ضيف يرحب به (٦١٩ ، ٩٤٩) وعند الآخرين ضيف لامرحباً به (٢٩٣ ، ٢٩٧) ، وهو الزور يُجفى والمعاشر يجتوى (٢٧٨) ، وهو السمّ (٣٢٣) ، وهو إحدى الميتتين ! (٤٠٧) وإحدى القطيعتين (٧٩١) .

ومن المصاحبات اللفظية للمشيب نجد الألفاظ «وخط» (٦٣٠ ، ١٣٦٧ ، ١٣٩٢) ، و«وضح» (٤٣١ ، ٤٦٠ ، ٦٢٣) و«ولع» (١٥٦٣) ، و«ايماض» (٦٢٩ ، ١٤٤٦) .

أما فيما يتعلق بالأفعال التى تصاحب ذكر المشيب فإنه يقال : ابيضّ (٦٧٩) ، واشتعل (٢٧٢ ، ٧٦٦ ، ١٢٨٧) ، وغلّس (١٣٥٦ ، ١٥٣٨) ، وضحك (٥٥٢) ، وتبسم (٦٢٩ ، ١٤٥٦) ، وتشعشع (٢٨١) ولقّع الرأس (٣٤٩) ، وانتضى (١٥١٢ ، ١٥٦٢) .

ومن المصاحبات اللفظية الخاصة بالمشيب تلك التى تدل على مكان حلوله كالفود (٤٨٨ ، ١٤٣٧ ، ١٥٥٨) ، والمفرق (٤٧٧ ، ٦٥٤ ، ١٤٨٠) ، واللمّة (٤٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٦) ، والعذار (٥٢٥ ، ٦٧٨ ، ١٣٩٥) ، والعارض (٧١٨ ، ٧١٩ ، ١٢٣٠) ، والقذال (٤٧٧ ، ٦٨٥ ، ١٣٧٤) ، والرأس (٩٠٤ ، ١٣٨٥) ، والغدائر (٦٨٦) ، والذوائب (٤٨٩ ، ١٢٧٨ ، ١٣٧٦) .

ويلاحظ أن هذه المصاحبات اللفظية وتلك التى سقناها آنفاً ترد فى المادة الشعرية بصيغ

مختلفة من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، أو ترد فى صيغ المشتقات على اختلافها .

وثمة مصاحبات لفظية محدودة الدوران ، وهى تلك التى ترد مصاحبة للخضاب : فمع الخضاب يأتى ذكر الخِطْر (٩٤١ ، ٩٥٥) ، والكتم (٦٤) ، والأصول (٩٦٥) ، والنصول (٦٩ ، ٩٠٧ ، ٩٦٧) ؛ كما ترد ألفاظ الكبر والهرم والكهولة مصاحبة لوصف آيات الكبر .